

## حصاد التخطيط العمرانى فى القرن ( ٢٠ )

دكتور / محسن صلاح الدين يوسف - كلية العمارة والتخطيط - جامعة الملك سعود

مقال منشور بمجلة الديرة - العدد (٢٨) جمادى الآخر / رجب ١٤٢٨ - الجمعية السعودية لعلوم العمران .



بدأ القرن الماضى بظاهرة إنتشار وشعبية السيارات الخاصة ، فكان لذلك أبلغ الأثر فى توجيه التخطيط العمرانى للمدن وأجزاءها طوال القرن نحو مراعاة ضوابط وقوانين ومعايير تسهيل حركة السيارة - كأحجام وكثافات المرور وعروض الطرق ومستوياتها وغير ذلك - مما حول التخطيط العمرانى إلى عملية تجزئى موديولية نمطية وذلك من خلال " التقسيم وإعادة التقسيم ثم تقسيم تقسيم المقسم لأصغر الأقسام كما وصفها بذلك لويس مفورد" ، حتى تلبى إحتياجات السيارة وتراعى قوانينها وتحترم ميكانيكيتها . وقد أدى ذلك لقولبة كل مفردات العمران بدءاً من الفصل بين إستعمالات الأراضى ، ومروراً بتحديد نطاقات ثابتة للعناصر و الخدمات ، وتوحيد أنماط النسيج العمرانى وقوانين وأشكال ومواصفات المبانى وغير ذلك ، علاوة على الجهود التى بذلت لإيجاد حلول منطقية وعلمية وحسابية لكافة المشكلات الكمية دون النوعية بالمدن .



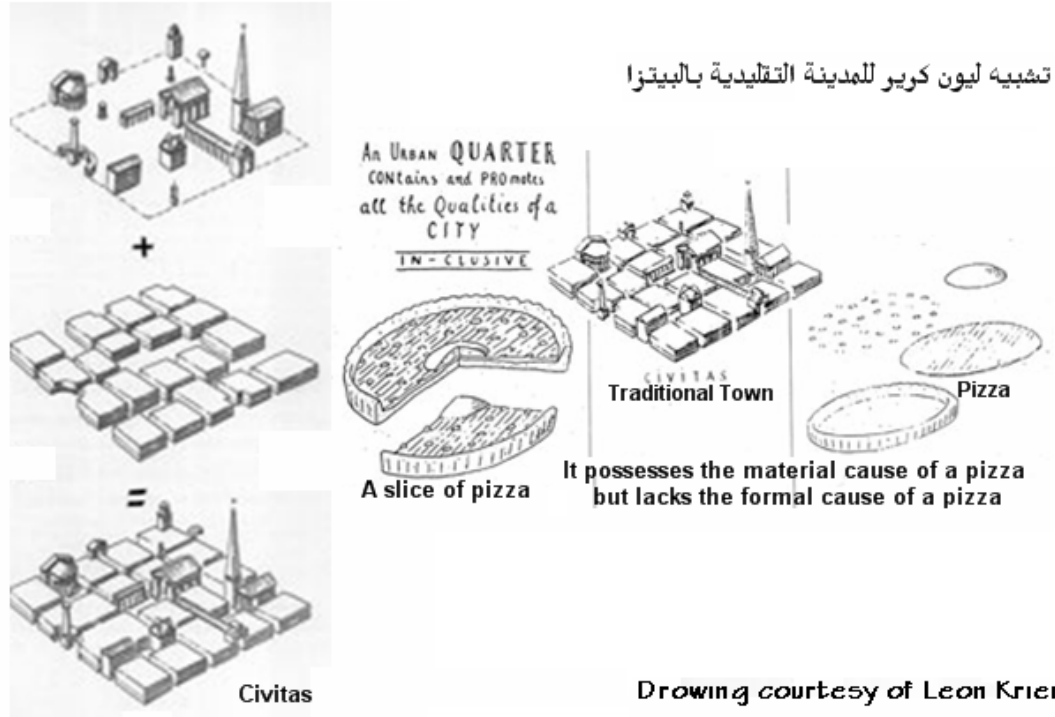
فتحول فكر وممارسة التخطيط العمرانى إلى نوعاً ما من التسلطية والفوقية الهادفة لوضع قوالب وقوانين تنظيمية مفروضة وثابتة أوقواعد أكاديمية جامدة للتحكم فى عمليات التنمية العمرانية بكافة مستوياتها ، فى صورة أشبه ماتكون بخط التجميع الصناعى ، فأصبحت مثاليات التخطيط العمرانى نوعاً ما من الفكر المتدرج و المقسم لعقول المخططين أنفسهم ، بينما تحولت المدينة إلى "آلة" !! يقوم المخطط بصناعتها وتشغيلها وإدارتها ثم صيانتها إذا لزم الأمر ! وأصبح التخطيط العمرانى الجيد فى القرن الماضى هو مايلتزم بكل القواعد والقوانين والمعايير المادية التى تحافظ على آلية وقوة ومتانة عمل تلك "الآلة" وربما شكلها أحياناً ، وكان التنظيم الهندسى الصارم للمدينة وأجزاءها لتلائم مزاج السيارة هو الهدف الأسمى للمخطط العمرانى ، وذلك دون النظر لأى عوامل إنسانية ضرورية لممارسة الحياة الطبيعية للمجتمع الإنسانى .

ولعل ما يؤكد كذلك خطأ أغلب التوجهات الفكرية فى مجال التخطيط العمرانى خلال القرن السابق ، هو موجات رد الفعل الفكرى التى يسهل رصدها فى نهايات القرن العشرين حول التيارات الحديثة والأفكار والشعارات التى ترفعها أغلب المدارس التخطيطية حول إصباح الصفة الإنسانية على المدينة أو بناء مدن صديقة للمشاه أو مدن بدون سيارات أو مدن خضراء ، أو عمران جديد ، أو مدن إيكولوجية أو عضوية أو غير ذلك . بالإضافة لأفكار الإستدامة ، ودعوات المحافظة على البيئة ، وزيادة الإهتمام بدراسات التأثير البيئى للحد من الآثار السلبية العديدة التى أدت إليها أشكال التنمية العمرانية المعاصرة .

أما من ناحية المناهج والوسائل فقد تطورت عمليات التخطيط وبرامج التنمية فى نهايات القرن نحو المرونة والحرية فى إتخاذ القرارات ، وذلك على النقيض من البدايات التسلطية للتخطيط أوائل القرن العشرين ، وكانت قد إستهلّت فى بدايات القرن بالمسقط الهندسى الكبير كإمتداد للعصر الباروكى ، ثم تطورت نحو فكر التخطيط الشامل أو المخطط العام الجامد ، والذى تطور عنه المخطط الهيكلى لزيادة درجة المرونة والتحرر ، ثم جاء التخطيط الإستراتيجى متعدد السيناريوهات ليفسح المجال لتحقيق درجات عالية من المرونة والحرية فى إتخاذ القرارات التخطيطية وصياغة خطط وبرامج التنمية العمرانية . ومؤخراً إنتشرت فكرة النمو الذكى والتي تنادى بتحقيق أعلى درجات المرونة والتحرر والعودة لتقاليد النمو العمرانى بالمجتمعات التقليدية . والراصد لتلك التطورات يلاحظ أن هناك قضيتين أساسيتين تدور حولهما كافة أفكار التطوير المنهجى التي يطرحها المفكرون وهما : دعم وزيادة البعد الإنسانى ومجالات الإبداع الفردى والمجتمعى على مستوى المدينة ، وتحرير مناهج التخطيط العمرانى من السيطرة والتسلط والجمود والفوقية فى إتخاذ القرارات .

وعلى العكس من ذلك فقد تميزت عملية نمو و"ليس تنمية" المدينة التقليدية بإدماج عملية التخطيط والتنفيذ فى عملية الخلق والابتكار والإبداع مما كان له أبلغ الأثر فى الإرتقاء بعمران المدينة وطابعها الفريد النابع من الروح المحلية الكامنة ، فارتقت عملية التخطيط العمرانى المكتبى ثنائية الأبعاد "وليد القرن الماضى" إلى مرتبة التشكيل العمرانى الواقعى ثلاثى الأبعاد فى الفراغ والذى إرتجلته بشكل إبداعى أغلب الحضارات . وقد أدي ذلك إلى نوعاً ما من "الإستدامة التخطيطية" من خلال استغراق عملية التخطيط بالمدينة التقليدية لفترة زمنية تكاد تساوي نفس فترة إنشاء المدينة وتنازلي معها ، مما أعطي للبنانيين "وليس المخططين" الفرصة والإستمرارية وكامل الحرية فى إيجاد حلول للمشكلات التخطيطية على الطبيعة وكل منها بمفردها ، وذلك من خلال إستدامة عملية المتابعة والمعاشة والخلق والإبداع فى إطار النسيج العضوى العام للمدينة . وبالرغم من أن تخطيط المدينة التقليدية لم يكن يتم دفعة واحدة بكافة أنحاء المدينة فى صورة مخطط عام أو " مسقط شامل كبير " كما كان يحدث فى المدينة الإغريقية أو الرومانية أوحتى الباروكية ، إلا أن المبدأ الذى حكم ذلك النمو ووحده عضوياً كان مبنياً على إيجاد نوعاً ما من التوازنات بين ضرورات وقيود وثوابت المصلحة العامة للمجتمع والتحررية الإبداعية الذاتية للأفراد والمجموعات .

وعلاوة على ذلك فإن إفتقار أغلب أشكال التنمية العمرانية فى القرن العشرين للطابع والهوية العمرانية المميزة ، كان نتيجة للميل المطلق للعقلانية الزائدة والمجردة ونتيجة لخلو تلك التجارب التنموية من العمق الروحى الكامن فى الأعمال الفنية رفيعة المستوى . وتلك الفكرة كان قد عبر عنها ليون كيرير - فى بلاغة مقارنة وسخرية مقاربة ومبالغة - حينما وصف المجاورة السكنية بالمدينة الأوروبية التقليدية ، بأنها كانت تبدو " كقطعة من فطيرة البيتزا " ، فقد كانت هى الجزء الذى يمثل ويحوى كافة المكونات والخصائص الأساسية للكل ، وعلى النقيض منها جاء التخطيط العمرانى فى القرن العشرين بفكرة الفصل التام بين الإستعمالات طبقاً لقواعد تخطيط المناطق ، وهو ما يحاكي فصل كل مكونات البيتزا عن بعضها ، ليحمل الناتج من تلك العملية كل عناصر و مكونات البيتزا ، ولكنها ليست ببيتزا ، لأنها لم تحاكي الطريقة السحرية لخلط ومزج المكونات على نار هادئة لتأخذ المذاق والعبق الخاص والمميز للبيتزا !



وتلخيصاً .. وكحصاد للتخطيط العمرانى فى القرن ( ٢٠ ) وباعتبار الجمود والإنضباط الزائد والأنانية والفوقية التخطيطية " أو الحاكمة الفردية للمخطط العمرانى " كانت هى السمة الرئيسية للتخطيط العمرانى فى القرن الماضى والذى نتج عن تغييب البعد الإنسانى الإبداعى ، وتغليب المنطق الحسابى الميكانيكى على كافة عمليات التنمية العمرانية خلال أغلب الممارسات التخطيطية ، فهل ينحى الفكر الجديد فى القرن الوليد نحو الإتجاه المعاكس ، ذلك الإتجاه المتحرر من القيود والذى يميل للمنعطفات الإنسانية الإبداعية مثلما كانت التقاليد فى العمارة العشوائية أحياناً والعفوية فى أغلب الأحيان ؟ وإذا كان التخطيط بحكم طبيعته ومركزيته وميله المطلق للإنضباط يقاوم الأمور النسبية والحرية والتحرر الإبداعى ، فهل يستمر الجدل ويطول حتى يذهب العمران نحو هاوية اللاتخطيط ، كما يدعوا البعض لذلك؟! وإذا كنا نؤمن بقاعدة أن اللوائح والقوانين لاتؤدى لعمل إبداعى أو فنون راقية وأصيلة ، وإنما العمل الفنى الخلاق هو مايستنبط منه اللوائح والقوانين ، فمتى يتحرر الفكر التخطيطى من جموده وفوقيته ليترك العمران للتفتح كعمل إبداعى خلاق ، بحيث لايبداً به المخطط العمرانى ، ولايحاول الوصول إليه ، وإنما ينتهى عنده .